مغامرات العقل في الحياة والكون

الأستاذ عدنان السبيعي

كم هو جميل أن تكون حيا بالفعل ؟ ... أن تشعر أنك تنجز شيئاً اثيراً غالياً ، أن يكون لحياتك هدف حقيقي واضح . إن الملايين من الناس يعملون في ارجاء الارض بجد ودأب ، ويسعون كي يحققوا لانفسهم الراحة والرفاه ، ورغم هذا السعي الحثيث ، والمحاولات المتنوعة يأتي على الانسان حين من الدهر يسأل نفسه قائلا : هل للحياة من معنى ؟ والى اين تتجه حياتي ؟ .....

اما حياة معظم الناس على سطح الارض ، فيبدو انها للاسف، عبارة عن سنوات معدودة يحيونها ، ينجبون خلالها الأولاد ، يحملون اسم ابيهم ، وبعدها يلعب هؤلاء الأولاد الادوار ذاتها التي لعبها اباؤهم من قبل ويكبر الأولاد لينجبوا أولادا من جديد، وهكذا دواليك ، تتابع الحياة دوراتها ، ياكل كل جيل ويشرب ، ويلهو وينمو ويتمتع ، ثم ينتهي ويسترخي مستسلما للموت .

ترى اليس هناك من هدف اكبر واجل من الاكل والشرب واللعب والمتاع ؟؟..

تنوعت الاجابة عن هذا السؤال الكبير ، فقال بعضهم : «إن الحياة تافهة لا معنى لها» وقال آخرون : ان الحياة قصيرة ولكن يسعنا ان نجعلها مليئة.وقال غيرهم : «ان الحياة خالية من اي هدف».

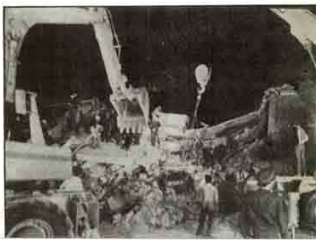

«ان الحياة سحابة دخان ، إنها لا شيء»(١)

وجاء في كتاب الله قوله تعالى : «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (٢)

واذا التمسنا ما عند المحدثين من المفكرين ، وجدنا (كوفكا) يعلن : «ان الحياة الانسانية خالية من اي محتوى» . ورأينا (هايديجر) يقول : «وجود الانسان إنما جعل من اجل الموت الذي سيقذف به إلى العدم من جديد» (٣)

إن كثيرا من الناس يُفجؤون (او يُفجعون) بنكبات او كوارث ، ويحيون تحت وطأة الحروب او الامراض والجائحات او المخاوف فينكفئون على انفسهم ويرون ان الحياة عبث وباطل ، كالقابض على الريح ...

هناك حوادث كونية تتجاوز الانسان في سعتها واثارها ، وهناك امراض وجائحات تقضي على الكثيرين من الاطفال والفتيان والفتيات وهم في عمر الورود . هناك جرائم المجتمع ، وفقدان الاحبة ، واضطراب الامن ... وكل هذا يحيط الانسان بغيوم قاتمة من الحزن ، تجعل الحياة وكأنها باهتة ضحلة ، وشديدة التفاهة تبعث على الرثاء والقلق .

وفي افضل الاحوال ، وحتى حين ينجو البعض من النوائب ، ومسببات الاحزان ، فإن حياة الانسان على الارض قصيرة جداً ، بالنسبة الى الوجود اللامتناهي الذي يحيط بالبشر .

ان عمر الانسان تافه ولا يذكر إذا قيس الى عمر الجبال ، والأنهار والبحار . وحياة كل انسان اشبه بنوسة من نوسات بندول الساعة ولا اكثر .

ان هذا كله يدعونا الى ان نتساءل عما اذا كان هنالك شيء يدخر للانسان ويخبأ من اجله ؟ شيء افضل من كل ما اشرنا اليه يستطيع ان يسبغ المعنى والقيمة على حياتنا ؟ واذا كان ذلك كذلك فما هو هذا الشيء ؟

(١) ماركوس اوريليوس.
(٢) ال عمران : ١٨٥
(٣) انظر اتجاهات الفلسفة المعاصرة (ايميل برييه) باريس ص : ١٠٤